

**التربية الجمالية ومواجهة الإرهاب:
قراءة في مفهوم التربية الجمالية والتربية السياسية
من خلال "رسائل في التربية الجمالية للإنسان" لـ شيللر**

**The Paradoxes of Political Systems
In Contemporary Western Experience**

أ. سعاد زربي

**جامعة تونس المنار
تونس**

Souad.zribi13@gmail.com



التربية الجمالية ومواجهة الإرهاب: قراءة في مفهوم التربية الجمالية والتربية السياسية من خلال "رسائل في التربية الجمالية للإنسان" لشيلا

أ. سعاد زريبي

ملخص:

يمثل مفهوم الإرهاب أهم المفاهيم الإشكالية في الزمن الحالي لفضاعة ما ارتكبه المجموعات الإرهابية في العالم باسم الدين من جرائم في حقوق المدنيين العزل. وهاهنا في هذا المقام نقترح تصورا فنيا وسياسيا قادرا على تحويل الانفعالات الأكثر ضراوة في النفس البشرية من أجل خلق الإنسان الاجتماعي والمواطن الفاعل القادر على الانتماء إلى ساحات الحياة المشتركة والمشاركة في بناء الدولة. ويشغل هذا المقال على تحديدات مفهومية لمفهوم الإرهاب ودور تهذيب الأفراد في تحقيق السلام والتعايش المشترك. فالتربية الجمالية هي تربية سياسية للإنسان على المواطنة واحترام القانون وتهذيب طباعه الأنانية من أجل خلق الإنسان المتصالح وبناء مشروع سلام إنساني كوني.

الكلمات المفتاحية: التربية، الفن، الإرهاب، الحياة المشتركة، الأمن الإنساني.

Abstract:

The concept of terrorism is the most problematic concept at the present time due to the atrocity of the crimes committed by terrorist groups in the world in the name of religion against the right of civilians and the unarmed. Here we propose an artistic and political vision capable of transforming the most ferocious emotions in the human soul in order to create a social human being and active citizen who is able to belong to the arenas of common life and participate in building the country. This article works on concept of definitions of the concept of terrorism and the role of refining individual in achieving peace and coexistence. The aesthetic education is a political education of man on citizen ship, respect of the low and refinement of his selfish nature in order to create a reconciled human being and build a project of universal and human peace.

Key-Words: Education, Art, Terrorism, Common Life, Human Peace.

1- مقدمة:

ما الإرهاب؟ يعرف كوفي عنان رئيس منظمة الأمم المتحدة في مارس 2005 الإرهاب بهذه العبارات: "إن أي عمل يشكل إرهاباً إذ ما قصد به التسبب بالموت أو بالأذى الجسدي البليغ لمدينيين أو لغير المقاتلين، بقصد تخويف السكان أو إجبار حكومة أو أية منظمة دولية على القيام أو الامتناع عن القيام بأي عمل". بناء على هذا يعتبر الإرهاب خطراً يهدد أمن الكائن البشري. ويظل موضوعاً راهناً يؤرق المفكرين غرباً وشرقاً، نظراً لتزايد أشكاله وتعدد صورته. وهو فعل ملتبس بالسياسة، ما يجعله صناعة سياسية، تطرحها السياسات العالمية الجديدة في تغيير الجغرافيا السياسية للعالم وسياسات السيطرة على الدول والموارد، وهو أيضاً ناتج عن تزايد التعصب العرقي أو الديني أو الهوي.

وفي هذا المقال سننطلق من حدثين تاريخيين ضربا المنطقة العربية: الأول يتعلّق بالقصف الأمريكي على العراق وسقوط نظام صدام حسين، والثاني الثورات العربية أو ما يطلق عليه تسمية "ثورات الربيع العربي". في الحدثين ثمة تعبير عن توق الشعوب العربية إلى الحرية وتحقيق العدالة من خلال حكم ديمقراطي يحفظ حقوق المواطنين وحرّياتهم. فُرضت في الحدث الأول "الحرية والديمقراطية" من الخارج بقوة السلاح، وفي الثاني تطلّعت الشعوب إلى ذلك عبر ثورات أطاحت بأكثر من حاكم. يلفت الفيلسوف الفرنسي جاك رنسيار في مفتتح كتابه "كراهية الديمقراطية" النظر إلى واقعة الإطاحة بنظام صدام حسين التي عايشها العالم مع بداية الألفية الجديدة، وقد نبّه إلى ما يتولّد في رحم ذلك أو ما يعقبه كبعض لوازم الحدث والظروف التي هيأت له أو أنتجته. "الديمقراطية تتبّع من الشرق الأوسط"، تحت هذا العنوان - يقول - احتفلت صحيفة ترفع مشعل الليبرالية الاقتصادية منذ بضعة أشهر بنجاح الانتخابات في العراق وبالمظاهرات في سوريا وبيروت... انتصرت الديمقراطية، لكن كان يجب معرفة كل ما يعنيه انتصارها، إنّ منح الديمقراطية لشعب آخر لا يعني فحسب منحه الدولة الدستورية والانتخابات الحرة والصحافة الحرة، إذ يعني أيضاً منحه الفوضى¹.

ويقول الفيلسوف الأمريكي المهتم بالشأن السياسي في منطقة الشرق الأوسط "كان ماركس يقول: ثمة شعب يلاحق أوروبا اليوم هو شعب الشيوعية ونحن بوسعنا القول اليوم: ثمة شعب يلاحق اليوم النظام العالمي هو شعب الإرهاب". إننا نعيش في مرحلة "عسكرة الفضاء" كأفطع صورة للعالم المعاصر. أما فيما يتعلّق بالثورات العربية فإنه على الرّغم من الحجم الكبير من الحريات التي تتمتع بها الشعوب العربية اليوم في ظلّ الأنظمة السياسية الجديدة، فإنها مرحلة كشفت عن انفلات أمني واجتماعي وفكري كبير، ساهم في ظهور أشكال من التطرف الديني والتعصب الفكري يصل إلى حدود القتل وتهديد سلامة المواطنين الأبرياء العزل وانتشار الإرهاب في كامل أنحاء العالم العربي.

من خلال هاتين الواقعتين يمكننا أن نطرح الإشكالية الأساسية التالية: هل كانت الشعوب العربية جاهزة فكرياً واجتماعياً وسياسياً لاستقبال المفاهيم السياسية الجديدة للمرحلة الجديدة التي تعيشها

1- رنسيار، كراهية الديمقراطية، ت. أحمد حسان، دار التنوير، 2012، ص 15

اليوم؟ إلى أين يسير العالم بكل هذه الانحرافات وكل هذه الصور البشعة في عالم يطلق عليه عصرًا متقدمًا؟

قد تكون إجابة: "نحن نسير إلى الهاوية" مربكة، على أنّ قتامة الواقع لا تنكر هذا القول المستعار من عالم الاجتماع الفرنسي إدغار موران. وهو يردّ أسباب هذا الوضع العالمي الكارثي إلى غياب الوعي بالوجود المشترك أساسًا، ممّا يضعف الإحساس بقيمة الحياة، وبه برّر انتشار البؤس، والفردانية، والأنانية والعزلة. إن هذا الوضع المريع لحياة الإنسان المعاصر يكشف عن خلل في التصورات، وبالتالي ارتباك في التنفيذ، أي خطأ في اعتبار أن العلم والتقنية أداة للسيطرة على الطبيعة، وجريمة في توظيف هذا التقدم التقني والعلمي في مشروع التصفية التقنية العلمية للإنسان، وهو مشروع يعمل ضد روح الإنسان والعالم. من هنا يمكننا أن نؤكد أن الإرهاب لا يقتصر على التفجيرات أو القتل أو التطرف الديني.. فهناك أيضًا إرهاب بصري، يعمل من خلال تسطيح مفهوم القتل والتعصب الديني وإثارة الأحقاد بين القوميات، وللمشاهد التي تصوّرها وسائل الإعلام الدور البارز في ذلك، وهي التي تغذي بشكل مباشر وغير مباشر تقدّم الإرهاب نحو أهدافه، ناهيك عن التوظيف المنحرف للذكاء التقني، واستغلال منتجات التقدم البيولوجي كأبشع ما يكون، ممّا ساعد على ظهور الإرهاب الصحي أو ما يعرف بصناعة الأوبئة، زاداها الإرهاب الاقتصادي من خلال تعمد تفجير وتجويع الشعوب وطأة.

ولا يمكننا أن نحدّد في هذا الإطار المسؤولين أو الراعين لكل هذه الأشكال من الإرهاب أو أن نقترح سبل تفكيك شبكات الإرهاب، فدون هذه الغايات عقبات كثيرة، والمجال لا يتسع للخوض في ذلك، ولعلّ أقصى ما يمكننا فعله هاهنا هو اقتراح فكرة قد تساعد الضحية الأساسية لجريمة الإرهاب: الإنسان. فكيف السبيل إلى إنقاذ الإنسان من جريمة الإرهاب وتخليصه من الطابع العدواني من أجل تحقيق توافقه مع كل البشر؟

من أجل الإجابة على هذه الإشكاليات وطرح طموحات تطوير الكائن البشري، وتصويره مواطنًا صالحًا واعيًا بواجباته إزاء شركائه في المجتمع، سنعود إلى نظرية فلسفية نموذجية طرحها الفيلسوف الألماني فريدريك شيللر سنة 1795 في كتابه "رسائل في التربية الجمالية للإنسان"¹

2- التربية وتهذيب الطابع:

يعتبر الفيلسوف الألماني أن التربية الجمالية هي تدريب الإنسان على الحرية السياسية. لكن تختلف هاهنا التربية الجمالية عن المفهوم العام للتربية بوصفها تدريبًا على قواعد التعلم أو قواعد السلوك، أي التربية المتعلقة إما بتدريب الفكر أو تهذيب الأخلاق. هاهنا يقترح شيللر نمطًا مختلفًا ومغايرًا من التربية، وهو تربية الإنسان في مشاعره وأحاسيسه، أي تربية الإحساس الإنساني بوجوده البشري والاجتماعي والسياسي، ما ينمي وعيه كذات وكفرد داخل المجتمع الكوني وكمواطن داخل الدولة التي ينتهي إليها.

1- انظر شيللر، رسائل في التربية الجمالية للإنسان، ت فاطمة الجيوسي وإلياس حجوج، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 2000

يقترح شيللر مشروع التربية الجمالية في ظرف سياسي وفكري واجتماعي مشابه للوضع الاجتماعي والسياسي والفكري للعالم اليوم، وهي فترة ما بعد الثورة الفرنسية سياسيا، وفترة اكتمال مشروع الحداثة الغربية بكل ادعاءات التقدم التي طرحها، ومشروع التنوير الذي اقترحه الشعوب الغربية إذًا كعنوان لمرحلة تاريخية من تاريخ الغرب: "عصر الأنوار". لم يكن شيللر مؤمنا بالمشروع الحداثي التنويري الثوري للغرب، ولم يكن يؤمن بالتقدم النظري للعلوم والمعارف طالما لم يقترن هذا التقدم بتطوير الفرد وتهذيب طبائعه داخل الممارسة العملية. يعتبر هذا الفيلسوف أن البربرية ليست مرحلة تاريخية عاشها الإنسان عندما كان يسكن الكهوف، أو سمة مرتبطة بحالة الطبيعة. إن حالة الطبيعة هي تسمية تطلق على كل مرحلة تاريخية توفرت فيها أشكال وصور الإنسان البربري، وهو في حالة الطبيعة بالتحديد، أو كلما سادت الفوضى والانفلات، وصار الإنسان كائنًا أنانيا عنيفا، وصار الأفراد في نزاع دائم بينهم حيث اللاتوافق عنوان العلاقات والانفلات والرعب الذي يخيم على الفضاء الاجتماعي. لم يكن التقدم الفكري دليلا على الوعي السياسي والاجتماعي للأفراد ماضيا وحاضرا إذن. إذ لزال الرعب فيما بينهم يشدد ويحتد كلما تعلق الأمر بملكية الأفراد وبسياسات الهيمنة الدولية.

من جهة أخرى يعتبر شيللر أن الثورات لا تحقق الحرية لصناعتها بل تمنحهم الفوضى والانحلال واللاتوافق. فلا بد من تدريب داخلي، ذاتي عميق للحيوان البشري، تدريب لأحاسيسه الأكثر حيوانية التي لا تقهر، وتدفع الإنسان نحو العنف والتمرد. ليس الإرهاب أساسا بل هو نتيجة لمسار طويل من الانحلال الاجتماعي والخمول الفكري، يقول شيللر: إن "الحياة نفسها باتت ميكانيكية، تجميع لأجزاء لا حصر لها، ولكنها خامدة لا روح فيها". لقد فقدت الحياة الإنسانية الوجد والانفعالات الحيوية إضافة إلى تضخم الوعي بالذات تحت "ادعاءات الذاتية والاستقلال الذاتي المتعجرف" ونداءات التقدم في كل مكان في وسائل الحياة اليومية، إلا أنها لم تكن في سبيل رفاهية الحياة الإنسانية فحسب، بل تعارضت مع أهداف الحياة البشرية التي تسعى إلى تحقيق السلام والأمن العالميين، يفضح ذلك تطور البرمجيات ونظم التنصت وتطور الأسلحة وسهولة صناعتها حتى في الجبال والمغاور.

لقد أدى التقدم إلى ظهور انقسامات عدة بين الدول، وانعدام التوازن العالمي قد شكل لبنة أساسية غدت الإرهاب. لكنّ هذا لم يكن يجد في اللاتوازن العالمي سببا من أجل تأجيل نيرانه، بل إنه يعود بالأساس إلى انعدام التوافق الاجتماعي الداخلي العميق داخل الشعب والدولة الواحدة، مما يؤدي إلى تصنيف بعض الشعوب بأنها إرهابية دون أخرى. لذلك فإن القضاء على الإرهاب مرتبط بالقضاء على الانقسامات والانشطارات داخل المجتمع، تلك الانشطارات التي تغذي الحقد الاجتماعي كفتيل يغذي كل أشكال الإرهاب. تنقسم المجتمعات التي يجد الإرهاب فيها مستقرا إلى طبقات دنيا وطبقات متمدنة: "طبقات دنيا وهي الأكثر عددا حيث تسود الغرائز الفجة والأكثر فوضوية حيث الجهل والتعصب الديني والعرق والقومي يحكم ويسود وطبقات متمدنة حيث الخمول وفساد الطبع والاكتفاء الذاتي المتعجرف". إن انقسام المجتمع

هو نتاج الثقافة القائمة على مبادئ الذاتية والاستقلال الذاتي انه "المشهد الأكثر تنفيرا وإثارة للاشمئزاز والذي يثير مزيدا من السخط سيما وأن الثقافة مصدره"¹.

إجمالا يقول شيللر "إننا نجمع كل لوثات المجتمع وشقائه". إن التاريخ يعيد نفسه نحن الأمة التي تشكو اليوم من وهن الماضي وقسوة الحاضر وتطالب بمستقبل يليق بها، لكنّها لم تحقق بعد الوسائل الكفيلة من أجل بناء ذاتها. يقول المفكر التونسي فتحي المسكيني "نحن هذه الأمة التي لم تعد صالحة للسكن، إن علمها الخاص بنفسها وطريقتها الخاصة في تعليم نفسها قد صارا بمثابة آلة فقدت صلاحيتها لأنها فقدت بنية العالم الذي يشدها من الداخل. نحن ننتمي إلى أمة صارت بلا علم خاص ولا طريقة خاصة في تعليم نفسها. إن الإنسان ما يزال لديه مسؤولية ثقيلة لا يجروء على احتمالها أحد"². يقول شيللر "إننا لا نزال دوما همجين"³.

يعتبر شيللر أن استفحال حالات العنف داخل المجتمع هي نتاج الطبع الطبيعي للإنسان بوصفه كائنا أنانيا تقوده ميولاته إلى التملك و الاستحواذ. يذكرنا هذا التوصيف للإنسان بأطروحة أساسية في الفكر السياسي الحديث، وهي فكرة جون جاك روسو الذي اتسم موقفه بازدرائه للتفاوت بين طبقات المجتمع الناتج أساسا عن ظهور "الملكية الخاصة"، "المصلحة الخاصة" و"ملكية الأرض". يقول شيللر "إن الأناية والعنف أسباب أساسية لتدمير المجتمع". إن الملكية عامل سلبي في تاريخ المجتمعات ذلك لأنها تخلق صراعات مصالح و نزاع قوى، فتولد اللامساواة والاستغلال والعبودية والتمايز الطبقي والعنف والعصيان، مما يجعل الحكم الاستبدادي السبيل الوحيد للسيطرة على النزاع الطبقي في المجتمع، لكن هذا الاستبداد بدوره يولد حالة من التطاحن بين طبقات المجتمع لان الاستبداد يسكت الصراع بين الطبقات، لكنه لا يقضي عليه مما يؤدي إلى اندلاع الثورات كأكبر منتجات الصراع الطبقي والتمهيش الاجتماعي ومحاولة إخماده بالاستبداد، لذلك لا يمكن أن نعول على الثورات كمشروع لإصلاح الواقع الإنساني والتغيير الجذري لحياة المجتمع، إذ "لم يكن الجيل الذي تقدم له الحرية - (الخارج من رحم الثورة)- هدية جديرا بتلقمها لقد كان فاسدا إلى درجة لا تمكنه من استعمالها، "إن الثورة ليست إذا الطريقة المثلى للمطالبة بالحرية وتحقيق العدالة بين أفراد المجتمع. يعتبر شيللر أنه "لا يمكن أن تكون الحرية فاعلة إلا في شعب غدا راشدا"⁴، إن تغير المجتمع وإصلاحه هو سيرورة تاريخية عميقة تنقل الشعوب والمجتمعات نحو غايتهم القصوى: الحرية.

1- رسائل في التربية الجمالية، مصدر سابق، ص 92

2- فتحي المسكيني، الهوية والزمان تأويلات فيمينولوجية لمسألة نحن، دار الطليعة والنشر، بيروت، 2001، ص 156

3- رسائل في التربية الجمالية، مصدر سابق، ص 18

4- رسائل في التربية الجمالية، مصدر سابق، ص 18

3-2- التربية الجمالية:

يقترح شيللر الجمال دربا آخر لحل مسألة التفاوت الاجتماعي والاستبداد السياسي والتطرف الاجتماعي والصراع بين الأفراد، أو ما صرنا نطلق عليه اليوم: الإرهاب. يقول هذا الفيلسوف: "بغية حل تلك المشكلة السياسية في التجربة لابد من شق طريقه (الإنسان) عبر المسألة الجمالية، لأن الجمال هو الذي ينقله إلى الحرية"، وحده الجميل ينقل الإنسان من "الأناية الفجة" إلى "الطبع الاجتماعي" لأنه يهذب طباعه وينقله من مجرد الحس الطبيعي إلى الانسجام بين حواسه وفكره. لقد صار يملك مزاجا حرا وذوقا أصيلا وحسا بإنسانيته، أي بحريته.

يعول شيللر على مكانة فلسفة التاريخ، رأسا فيلسوف العقد الاجتماعي روسو بوصفه مؤسس هذه نظرية القائمة على افتراض أن الإنسان عاش في فترة ما من تاريخه حالة الطبيعة، وأنه من "غير الممكن أن تستمر هذه الحالة البدائية، وأن الجنس البشري هالك إن لم يغير كيفية وجوده" تلك الوضعية التي لا يعتبرها شيللر افتراضا تاريخيا، بل هي واقع ينطبق على أية فترة، متى توفرت صور حياة الطبيعة في أي مجتمع، في حين أن الحالة المدنية هي التي يتحول على إثرها إلى كائن فطن وإنسان بعد أن كان حيوانا أرعن محدود النظر². ولابد لهذه الكثرة العشوائية أن تنتظم تحت راية واحدة يسميها روسو "الشعب" وهو مجموع الأفراد الذين يعيشون تحت سلطة المدينة "فيسمون جماعيا شعبا ويدعون خصوصيا مواطنين بصفتهن مساهمين في السيادة ورعايا من حيث هم خاضعون لقوانين الدولة³.

يعتبر شيللر أن هذه النقلة من حالة الطبيعة إلى الحالة المدنية هي نقلة من النقيض إلى النقيض، وهو أمر غير ممكن، إن "القفزة"⁴ على حد عبارة شيللر من عالم الطبيعة حيث كان الإنسان "مخلوقا رتوبا ومتماثلا في غاياته على الدوام، أنانيا عاصيا، غير ملتزم، عبدا لا يجد الراحة والسكينة إلا في الطمع، يريد الاستحواذ على الأشياء بجشع مدمر، علاقته بعالم الحواس علاقة تماس مباشر"، غير ممكنة.

إن حالة الطبيعة هي وضعية وليست مرحلة تجاوزها التاريخ البشري، أما الحالة المدنية فهي غاية منشودة، قد تتوفر بعض خصائصها داخل المجتمع، ولكنها لا تنطبق بشكل كامل في مجتمع دون آخر، لأنها تأسيس لدولة العقل والقانون، ولكن يبقى الطبع الطبيعي في البشر عائقا أمام تحقق الحالة المدنية. يسعى شيللر إلى التبشير "بإنسانية استطبيقية" تحقق التواصل بين الطبيعة والحرية، والانسجام بين الإنسان الفيزيائي الذي ليس بوسعنا نفيه ولا التغافل عن إمكاناته وحقوقه، ذلك الذي سعت الفلسفة الحديثة إلى طمس معالمه بإرساء ثقافة الوحدة، فانسلخ من كل ميولاته وانفعالاته الحسية والشعورية، ليظهر في

1- نفسه، ص 220

2- يعود مفهوم حالة الطبيعة إلى فلسفة العقد الاجتماعي لجون جاك روسو والتي يفترض فيها هذا الفيلسوف الفرنسي أن الإنسان كان يعيش في حالة الطبيعة يشبه في تصرفاته الحيوان لأن الغريزة تتحكم في أهوائه وقراراته أنظر جون جاك روسو، إيميل أو في التربية، ت عادل زعيتير، هنداوي، المملكة المتحدة، 2017.

3- روسو، في العقد الاجتماعي أو مبادئ الحق السياسي، ت. عمار الجلاصي وعلي الأجنف، دار المعرفة للنشر، تونس، 1980، ص

19

4- رسائل في التربية الجمالية، ص 201

أقصى جبروته ضد الانفعالات الإنسانية بوصفه كوجتو، فوحده الفكر ضامن لوجود الإنسان وهويته، وبين الإنسان الأخلاقي من جهة أخرى كغاية يسعى الإنسان إلى تحقيقها. بين الضرورة والحرية يجب أن تتوفر الطاقة الجمالية الكفيلة بإحلال العدالة والمساواة والتناغم. فاستبداد الكل والوحدة يفرز التطرف والتمرد والتعصب والإرهاب، وفي المقابل حيث هناك التنوع والحرية هناك سلام وتواصل مرن بين البشر. يجذّر شيللر الفن داخل التجربة الذاتية العميقة للإنسان بوصفه كذلك، أي أن يدخل الفن في عمق التجربة المعيشية للبشر، فيتحوّل إلى أداة لتربية البشر في نوع من "تدريب على القدرة على الإحساس"¹، في تأكيد على أن تقدم الحضارة يجب أن ينطلق من تهذيب طبائع البشر، فلا بدّ من ثورة عميقة في "الإحساس"²، إنها "الثورة الشاملة في أسلوب الإحساس بكامله للإنسان الذي يحمله المظهر الفني". وتعتبر التربية الجمالية أسلوباً جديداً للتفكير في "الذات" وشكلاً مضاداً لكل أشكال التعصب التي تنادي بالاختلاف والتدابير. فهي تعدّ أبرز وسيلة لامتنعاص الغضب الشعبي، واحتواء التناظر بين الأفراد، وضمان لتحويل الاختلاف داخل المجتمع إلى مكسب فكري وثقافي واجتماعي.

يتعلق الرهان الأساسي للتربية الجمالية بأربعة مبادئ: هي الخير، والحقيقة، والجمال، والراهنية. يشترط مبدأ الخير أن يكون الإنسان قادراً على العطاء نحو الآخرين، ونحو العالم عطاءً خيراً. ويرتبط مبدأ الحقيقة بأن يكون الإنسان قادراً على تربية الحقيقة الطاهرة في سكينته نفسه الحية. ويتعلق مبدأ الجمال بالوعي الذاتي بالجمال، أي أن يتمتع الإنسان في ذاته "بروح وذوق، وبكل فضيلة قريبة لهما". في حين يتطّلع مبدأ الراهنية أن يكون الإنسان ابن عصره.

ويحدد شيللر ثلاثة رهانات أساسية للتربية الجمالية وهي:

1- وحده الجمال يستطيع أن يمنح الإنسان "الطبع الاجتماعي"³، فلئن كانت الحاجة والرغبات ترغمه على الدخول في المجتمع من أجل تحقيق أهداف مادية، والعقل يسنّ له المبادئ، والقوانين تضمن الحياة الاجتماعية المشتركة، فإن الجمال يهبه القدرة على إيجاد تناغم بين الضرورة المادية التي تدفع الإنسان إكراهاً في الحياة الاجتماعية وحرية العقل الذي يكتفي بسن القوانين. يخلق شيللر من خلال التربية الجمالية حقلاً كفيلاً بالمصالحة بين عالم المحايثة والعالم المتعالي، أو بين الضرورة والحرية من أجل مجتمع فاعل ومتصالح مع ذاته. إلا أن إحلال التناغم داخل المجتمع مشروط بتحقيق التناغم داخل الإنسان الفرد فيه. فلا بد من تحقيق عملية مصالحة داخل الفرد بوصفه نواة المجتمع. إنّ هذه "الحالة الجمالية" هي على حد عبارة الفيلسوف الفرنسي رنسيار "وعد"⁴، لأنها حالة ليس للتطرف فيها مكان، إذ أنها مبنية على التوسيع، الكثرة، التعدد والإضافة، إنّها في ذاتها لعب حر بين الملكات. إنّ اللعب الحر بين الإحساس والعقل هو المرونة التي بوسعها أن تقضي على

1- Pierre Hartmann, Du sublime, Presses Universitaires de Strasbourg, 1999, p 128.

2- رسائل في التربية الجمالية، مصدر سابق، ص 111.

3- رسائل في التربية الجمالية، مصدر سابق، ص 220

4- Rancière Jacques, Partage de sensible, Paris, Gallimard, 2007, p 29

التطرف من أي جهة كان، أي سواء أكانت الأحاسيس مصدره أو الفكر أساسه. إن الإنسان الجمالي أي الإنسان اللاعب هو ذلك الإنسان الذي يتمتع بروح فاعلة وبطبائع جمالية. لقد صقل الجمال طبائعه الأكثر وحشية ورفعها إلى مرتبة الطبائع الجمالية فأصبح يتمتع " بروح وذوق وبكل فضيلة قريبة لهما"¹.

2- يقول شيللر "وحده التصور الجمالي يجعل من الإنسان كلاً"²، فلا يلغي أي غريزة من بين غرائزه الحسية أو الشكلية، بل يصرّ على الإضافة والتوسع في ملكاته إلى ملكة اللعب الجمالي بين الضرورة والحرية، بين الغريزة الحسية والغريزة الشكلية، وعلى إحداث الانسجام وإحلال التناغم والسلام الدائم بين غرائزه وتحقيق التواصل بين واقعه الحسي المادي ومبادئه.

3- "وحده التصور الجمالي يحقق السعادة لكل البشر"³. يتعلق الأمر بالعدالة في توزيع وفي الحق في السعادة بين البشر، أي بحق كل من يُدعى إنساناً في حياة سعيدة.

إن الإقامة في حقل الكوني قائمة بالأساس على العدالة في توزيع المشاعر الجمالية بين البشر. فإذا كان استحقاق ديكارث أن يعتبر "العقل" أعدل الأشياء توزعاً بين البشر من أجل بناء فلسفته العقلانية، فإن شيللر لا يعتبر "الإحساس" أعدل الأشياء توزعاً بين البشر من أجل بناء فلسفته في الفن فحسب، بل في تفكيره في المسألة السياسية. هناك في التربية الجمالية سياسة كبرى في تحقيق العدالة بين البشر، لأن التربية الجمالية تربية للإحساس البشري على أن يكون إحساساً بالحرية داخل الفضاء العمومي الجامع. إن الإحساس شرط إمكان الحرية السياسية، أي أن الجميل يقود الإنسان إلى الحرية، فهو يكفّ عند شيللر عن أن يكون مجرد "رمز" للخير مثلما هو عند كانط، بل هو الضامن الذي يجعل الغرائز البشرية متصالحة مع انضباط العقل وقانونه. إنّ الإحساس بالجميل مرحلة تاريخية في صيرورة النوع البشري، لا بدّ منها، لبلوغ كماله عند شيللر. وهذا الفهم للإنسان وحده الكفيل بأن يفتح الفرد على الكوني وعلى الحياة الجماعية المشتركة، يخرج من خلاله من أنانية الغرائز إلى كونية القوانين السياسية والأخلاقية. إنّ الجميل إذن مرحلة أنطولوجية داخل التقدم التاريخي للنوع البشري في صيرورة كماله.

4- المصاحبة:

يسعى شيللر من خلال الرسائل إلى بناء نظرية في التواصل وفي التنديد بكل أشكال العنف والعصيان، سواء أعلق الأمر بالإنسان في ذاته أو بين أفراد المجتمع أو داخل الدولة. يقول شيللر: "إن برعم الجمال المحبّب اللطيف لا يفتح هنا حيث يعيش الإنسان مختبئاً في المغاور وسكان الكهوف وحيداً أبداً، ولا يجد الإنسانية خارجه، ولا هناك حيث ينتقل الإنسان بين مجموعات كبيرة كالبدو، هناك حيث يكون الإنسان صامتا في كوخه الخاص، ثم بمجرد أن يتجاوز عتبه إلى الخارج يخاطب النوع بكامله"، رسائل في التربية

1- رسائل في التربية الجمالية، مصدر سابق، ص 210

2- رسائل في التربية الجمالية للإنسان، مصدر سابق، 220

3- نفس المصدر.

الجمالية للإنسان. ومن أجل تحقيق تلك الغاية يجب على الإنسان في نظره أن يحدث مصالحة بين غرائزه وأفكاره، وبينه وبين الآخر، تلك المصالحة يطلق عليها شيللر "قوة اللعب" الحرة التي بوسعها إحلال الانسجام والتوافق الداخلي العميق في الإنسان من أجل تهذيب طبائعه، وأن ترتقي الأجزاء إلى مرحلة الكل، حيث "حرية القلب وقوة الإرادة"¹. إن الإنسان المتطرف الذي يقدم على فعل إرهابي هو إنسان متوتر حسيا أو فكريا، ويجب العمل على إحلال المصالحة الداخلية في نفسه وفي عقله وروحه. يقول شيللر: "أصف الإنسان بالمتوتر سواء كان واقعا تحت إكراه الأحاسيس أو تحت إكراه المفاهيم والأفكار، وكل تسلط حصري لواحدة فقط من غرائزه هو بالنسبة إليه حالة إكراه وطغيان.. فالإنسان الذي تسيطر عليه الأحاسيس بصورة وحيدة الجانب متوتر حسيا، والإنسان الذي تسيطر عليه القوانين بصورة وحيدة الجانب متوتر روحيا"². لذلك يعتبر شيللر أن الفن والجمال هما المهدئ الذي يعمل على المصالحة وتخليص الإنسان من التوتر والعنف الذي يحكم داخل المجتمعات، ويسود. إن المصالحة بين الملكات هو المهمة الاستعجالية للعصر الذي يبرز تحت ضغط النزاعات التي تحدث انشطارا داخل الإنسان، إنّه يصبح فيها كائنا برمائيا، يعيش بين عالمين متناقضين، يتردد بينهما الوجدان بلا انقطاع عاجزا عن حزم أمره واتخاذ قرار يرضيه. الجمال والفن مساحة شاسعة من أجل إحلال الانسجام والتوافق والتضامن بين الملكات، وبين البشر، فالفن ابن الحرية، قادر على تحقيق الاتصالات الأكثر تنوعا. يقول هيغل: "إن معاني الإنسانية تتحقق في التضامن بين المجالات والمصالحة والمشاركة والتداخل، وتحقيق الاتصالات الأكثر تنوعا من أجل عالم متماسك ومتكامل كليا"³. إن الإضافة والتواصل والمصالحة هي بديل للمجتمع المتوتر، ولكن لا يمكن القضاء على الإرهاب إلا بالقضاء على التوتر، سواء كان توترا في النوازع أو توترا في الأفكار. فلبناء ثقافة الاختلاف والتضامن يقول شيللر: "إن الإنسان بحاجة إلى الآخر من أجل أن يحقق هدفه الأعلى، إنّه لا يفعل إلا في فضاء المجموعة، إن قطرات كثيفة تصنع البحر، مثلما أن الكثير من الماء يدفع الطواحين"⁴.

يكف الإنسان المتصالح مع ذاته، أي القادر على إحلال التوافق بين نوازعه وأفكاره، عن أن يكون عنيفا أو متمردا، إنه نمط فريد من البشر، لقد صار إنسانا جماليا حيث الطبائع الجمالية تحكم وتسير أفعال الجمالي. إنّها الروح الجميلة، "تتمتع بروح وذوق وبكل فضيلة قريبة لهما"، مثلما يخبرنا شيللر. فهو يقابل شيللر بين الإنسان المتوتر والإنسان المتصالح مع غرائزه وأفكاره، ومن أجل أن يبارك الثاني اتخذ من التربية الجمالية وتدريب الإحساس مسارا حيويا لتثبيت نظرية المصالحة داخل المجتمع وبين الشعوب. فالإنسان المتضامن يتخلّص من التوتر الحسي والفكري ويتجاوز كل نوازع العنف الحيواني كي يجسّد فكرا جديدا يؤسس للمواطنة الكونية في العالم وتقاسم المشترك. " فهناك سوف يرى المرء المثل الأعلى يحكم الحياة

1- رسائل في التربية الجمالية، مصدر سابق، 213

2- التربية الجمالية للإنسان، مصدر سابق، ص 159

3- هيغل، علم الجمال، تر. جورج طرايبيشي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 1979، ص 27

4- Schiller, L'œuvres complètes, trad., Régnier. AD, Paris, Librairie Hachette, 1882, Tome 1, p 342

الواقعية، الشرف ينتصر على حب الملكية، الفكر على المتعة، حلم الخلود على التعلق بالوجود،¹ حيث المظاهر الجمالية وحيث "لا يمكن تحمل أي امتياز أو استبداد"².

إن الحرية السياسية هي تجلّ خارجي لتجربة الإحساس الداخلي العميق بالحرية. تبدو الحرية المدنية مكسبا خطير جدًا على المجتمع والدولة والمواطن إن لم تكن مشروطة بحرية داخلية. والفرد إذا قام بتدريب قواه الحسية والعقلية على الانسجام يصبح قادرا على تحمل معاني الحرية بوصفها علامة على بلوغ الإنسان حالة الحرية السياسية والأخلاقية، ففّن تحويل الغرائز الأشد فوضوية والتخلص من الأنانية وجشع الإنسان البدائي هو وحده القدرة على إضفاء طابع النبل على طبائع الإنسان وامتصاص الطبع العدواني فيه. إن نبل الطبائع والوعي العميق بمفهوم الحرية هما شرط مجتمع متوازن مبني على التواصل بين أفراد. " فإذا كان الإنسان متوافقا مع نفسه ومتوحدا معها داخليا، فسوف ينفذ خصوصيته حتى في أعلى درجات تعميم سلوكه، وتغدو الدولة مجرد لسان حال غرائزه الجميلة، الصيغة الأكثر جلاء لتشريعها الداخلي، وبالمقابل إذا كان هناك تناقض وتعارض بين الإنسان الذاتي والإنسان الموضوعي فإن الدولة أيضا سوف تتبنى القسوة الصارمة في القانون إزاء مواطنيها"³. لن يتحقق الانسجام الداخلي إلا بالجمال، ولن يتحقق الأمن داخل المجتمع إلا متى تألف من ذوات صقلها الجمال. إن الإنسان الجدير بالحرية السياسية والجدير بأن يكون عضوا فاعلا داخل الدولة هو ذلك الإنسان الذي طور إمكانياته الفاعلة من أجل حرية سياسية مسؤولة. إن الحرية السياسية هي القدرة على الانتماء إلى الفضاء العمومي الذي يركز على البينية والتواصل بين الأفراد. إنها علامة "شعب غدا راشدا"⁴، وعلامة على قدرة الأفراد على الفعل ببصيرة حرة وقرار حر: " ففي حضارة جد حرة فإن الإدارة العامة في الدولة لا تتحقق إلا عن طريقة طبيعة الأفراد أنفسهم"⁵.

1- رسائل في التربية الجمالية، مصدر سابق، ص 210

2- رسائل في التربية الجمالية، مصدر سابق، ص 210

3- م، س، ن، ص

4- رسائل في التربية الجمالية، مصدر سابق، ص 84

5- Marcuse H, Eros et civilisation, Paris, Ed Minuit, 1963, p 177

5- خاتمة:

تراهن التربية الجمالية على بناء مواطن عالمي. ولكن تظل هذه الغاية المنشودة مرتبطة بالإنسان نفسه من أجل إحلال التوافق مع ذاته ومع الآخر دولة وشعبا. ولئن ساعد التقدم التقني اليوم في تقليص الهوة بين الأفراد وتيسير سبل التّواصل فإنّه في جانب كبير من ألياته قد أسهم في تطوير أشكال الإرهاب، ولذلك باتت عودة الإنسان إلى الجمال وروح الفن والطبيعة شرطا أساسيا لبناء مجتمع إنسان كوني متصالح ومتضامن. يقول يورغن هابرماس: "لقد أدرك شيللر الفن بوصفه تجسيدا ماديا حقيقيا للعقل التواصلي... وحده التواصل الفني يوحد المجتمع لأنه يتوجه إلى ما هو مشترك بين كل أعضائه"¹.



1- هابرماس، القول الفلسفي للحداثة، ت جورج طرابيشي، دار الطليعة للطباعة و النشر، بيروت، 1979، ص 7

قائمة المصادر والمراجع:

المصدر:

- 1- شيلر، رسائل في التربية الجمالية للإنسان، ت فاطمة الجيوسي وإلياس حجوج، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 2000.

قائمة المراجع بالعربية:

- 1- روسو، إيميل أو في التربية، ت عادل زعيتر، هنداوي، المملكة المتحدة، 2017.
- 2- روسو، في العقد الاجتماعي أو مبادئ الحق السياسي، ت. عمار الجلاصي وعلي الأجنف، دار المعرفة للنشر، تونس، 1980.
- 3- رنسيار، كراهية الديمقراطية، ت أحمد حسان، دار التنوير، 2012.
- 4- المسكيني فتحي، الهوية والزمان تأويلات فينومينولوجية لمسألة النحن، دار الطليعة والنشر، بيروت، 2001.
- 5- هابرماس، القول الفلسفي للحدثة، ت جورج طرابيشي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 1995.
- 6- هيغل، علم الجمال، ت جورج طرابيشي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 1979.

قائمة المراجع بالفرنسية:

- 1- Hartmann Pierre, *Du sublime*, Presses Universitaires de Strasbourg, 1999.
- 2- Marcuse H, *Eros et civilisation*, Paris, Ed Minit, 1963.
- 3- Rancière Jacques, *Partage du sensible*, Gallimard, Paris, 2007.
- 4- Schiller, *L'œuvres complètes*, trad, Régnier. AD, Librairie Hachette, Paris, 1882.